« هكذا تكلمت الأشجار »

لا جدوى من أن تلصق أوراقا خضراء على غصن جاف.
دعنا نذبل
دعنا نفقد خضرتنا ، نصفر ، نخاف
دعنا نكتسب الالوان الجرباء
دعنا نتعرى ، نسقط
تجرفنا الريح على وجه الماء
دعنا يأكلنا الاسفلت
نسد البالوعات
نتحمل أقدام الاطفال وضغط العربات
دعنا نذوى ، نتحلل
ينمو في أعيننا الفطر
تسحقنا أحذية المطر الغاضب
دعنا نمتزج بتربة مصر السبخاء
دعنا نخصب هذي الارض الصحراء
حتى أن جاء ربيع
ان جاء
تنمو أوراق الشمس على الاشجار
ويفيض الظل نقيا كالامطار

القاهرة — **يسرى خميس**

يطول الحديث عن فكر هذه المرحلة التاريخية ومفكريها ، لكن من الجور والظلم أن ننهي الحديث بدون الكلام عن ساطع الحصري وعن زكي الارسوزي .

اذا كان لكل أمة فكرها القومي ومفكروها القوميون ، فان أمتنا العربية قد عرفت خلال طور انبعاثها الحاضر هذين المفكرين الرائدين.

يقولون ، لقد بدأ فكرنا القومي وبدأت نهضتنا العربية قبل المعلمين . هذا صحيح ، لكنه كان فكرا ضبابيا وحائرا ، كان يتعثر في سيره وتطوره ، ويحوي الكثير من الثغرات والنواقص ، ثم كان فكرا لا يميز بين الدعوة الشرقية والاسلامية والعربية ، ثم جاء الحصري منذ نصف قرن ، فاذا به يناظر ويناقش ، يعمل ويكتب ، واذا به يحلل ويناضل من أجل القضية العربية ، واذا به ، وهذا أفضل ما قام به ، ينزل بالعروبة وبالوحدة العربية ، من سماء الامال والاحلام والاماني نحو أرض الواقع حيث يتحقق الوجود العربي وحيث تخرج الفكرة من حالة التجريد نحو الواقع العملي المحسوس .

واذا كان الحصري قد اختار مجال البحث والتحليل الاجتماعيين، كوسيلة للكشف عن أوضاعنا الثقافية والاجتماعية ، وكوسيلة لتنسيق هذه الاوضاع ، وابراز العوامل والشروط القومية التي تتوفر في أمتنا بالنسبة الى العوامل والشروط التي توفرت في القوميات التي تحققت أو تسير في طريق التحقق ، فان الارسوزي قد تنبه بشكل خاص الى الاهمية التي يتميز بها اللسان العربي ، ووعي العلاقة الشديدة ما بين اللسان والفكر العربيين ، ما بين المعاني والالفاظ التي تختزنها وتحملها ، وانطلاقا من هذه الفكرة أو هذه النظرية ، أعني انطلاقا من فقه اللغة العربية ، عمل الارسوزي على سبر أغوار الكلمات ، وعلى تعرية القشور التي علقت بحياتنا وكادت تغطي حقيقتنا ومعالم حضارتنا ، في محاولة خلاقة وجديدة قصد الوصول الى جوهر الوجود العربي والحضارة العربية . ربما قال بعض الذين عرفوا الارسوزي ، انه كان لا يخلو من الفكر الضبابي ومن الافكار العامة ، غير المتسقة حينا والطوبائية أو الرومانسية حينا آخر .

وقد يكون في هذا بعض الحقيقة ، لكننا لا نستطيع فصل كتب الحصري ومحاضراته عن حياته ، وكذلك لا نستطيع فصل كتب ومحاورات الارسوزي (بالقياس الى محاورات سقراط) عن حياته .

واذا كانت حياة الحصري تبدو مستقرة بعض الشيء ، رغم تنقله المستمر ، مما أكسبه ذهنا تجريبيا ومقارنا ، فان حياة الارسوزي كانت عبارة عن سلسلة من المآسي والنكبات ، بدأت يوم بدأ يصطدم بأعداء العروبة ، ثم تأزمت يوم أضاع مسقط رأسه ـ الاسكندرون ـ وجاء طريدا مشردا مع تلاميذه . ومع ايمانه القومي الحاد الذي تحول الى ما يشبه الهوس ، وجعله أقرب الى رجل العقيدة منه الى العالم الباحث . وهذا لا يسيء الى الارسوزي ، وهو الذي أراد نفسه انسان رسالة اكثر منه مؤلف كتب أو مدبج مقالات ، وأراد أن يكون معلما للجيل أكثر منه أستاذا لمدرسة أو مناظرا لجامعة .. وأراد أن تكون حياته ، مثالا لافكاره ، نفحة رحمانية وقبسا يشع خلال الليل الحالك .

تراني شططت عن الموضوع باطالتي الحديث عن الحصري وعن الارسوزي ؟

لقد قلت بأن الذهن العربي قد وعى بأن للثقافة رسالة تعنى بتقويم الاعوجاج ، وان أوضاعنا القومية المعوجة تحتاج للتقويم ، يعني للتنسيق والتوضيح والتوحيد ، واننا نحس حالما نتحدث حاجة وضع الافكار القومية في قلب الاحاديث .

ان للثقافة رسالة ، واذا كنا لا نسمح لانفسنا بالحكم على ثقافتنا العربية المعاصرة ، في هذه العجالة ، فان من المشجع ومن المفرح أن يتنبه أحد مثقفينا المعاصرين لهذه الظاهرة المهمة فيدعو كتابه عن الادب ب « الادب المسؤول » (١) .

باريس — **عدنان ابراهيم**

(١) المرحوم رئيف خوري في كتابه الذي صدر بهذا العنوان عن دار الاداب .